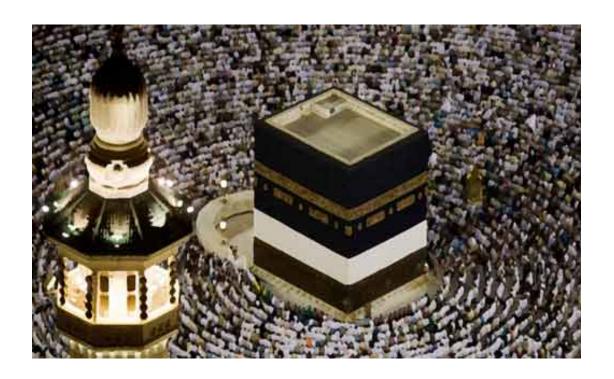
# الحج ّ ودوره المهم في حياة الإنسان



عندما نريد استعراض بعض معطيات الحج "إلى بيت ا□ الحرام ينبغي لنا أن ننظر إليه كمجموعة كاملة أو "لا ً، ثم "نلاحط المعطيات التفصيلية لكل " منسك منسك.

النظرة العامّة...

ويمكننا أن نذكر \_ هنا \_ أهم هذه المعطيات بصورة نقاط هي:

1 \_ تعميق الارتباط با□: بالتركيز على ذكر ا□ المتواصل في أيّام الحجّّ... فهي الأيّام التي يردد الحاج فيها كثيرا ً ذكر ا□، ويحس بالرابطة بينه وبين ا□ إحساسا ً عميقا ً. وهذا الترديد المركز سوف يترك أثره على حياة الحاجّ العامّة ليرتبط في كلّ آن با□ تعالى يلهج بذكره، ويستشعر عظمته عند كلّ عمل يقوم به.

2 \_ الشعور بالعمل في سبيل ا□: فالإنسان الحاج " في أيام الحج " متفرغ لهذه الناحية... قد أسلم نفسه وحياته بكل "لحظة من هذه الأيام تُصرف في نفسه وحياته بكل "لحظة من هذه الأيام تُصرف في سبيل ا□ وقُربة إليه. فهو إذن يتدر "ب على أن يصوغ حياته كلاها وفق هدى ا□ وأوامره، ويبتعد عن كل " ما يصرفه عن العمل في سبيل ا□. قال الصادق (ع): «إذا أردت الحج " فجر "د قلبك □ عز "وجل " ـ من قبل عزمك ـ من كل " شاغل وحجاب حاجب، وفوض أُمورك كلاها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلام لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة»[1]، بمثل هذا التجريد القلبي والتسليم يدخل الحاج أيام الحج "، وبمثله يخرج ليستقبل الحياة.

ولهذا فإن ّللحج ّ إشعاعا ً على عمل الإنسان بعد الحج ّ، ففي المحاسن عن عبدا□ الحجال رفعه قال: «لا يزال على الحاج ّ نور الحج ّ ما لم يذنب»[2]. وقد وصف الحج ّ بأنهّ فرار إلى ا□. فعن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى: (فَفِر ّ ُوا إِلَى ا□ ِ إِن ّ ي لَكُم ْ مِنهْ ُ نَذِير ٌ مُبيِين ٌ) (الذاريات/50) قال: «حج ّوا إلى ا□ ِ»[3]. 3 \_ التضحية في سبيل ا□: إذ أن ّ الحج ّ غالبا ً ما يرافقه بذل الجهد الكبير خصوصا ً إذ كان الحاج ّ يقصده من أماكن بعيدة، ولكن ّ الحاج ّ يبذل هذه الجهود مربيا ً نفسه على أساس أن ّ في هذا البذل ربحا ً لأن ّه بذل «في طريق الجنّة» على حد تعبير الرواية[4]، وهذا البذل سيترك أثره بلاريب على نفس الحاج ّ ليسترخص الجهد في كل ّ مجال يريد ا□ أن يكون فيه الإنسان العامل حتى ولو تطلب ذلك الجهد الكبير. فعن الإمام الصادق (ع): «مَن ات ّخذ محملا ً للحج ّ كان كمن ارتبط فرسا ً في سبيل ا□».

4 \_ الغفران والتوبة: فإن ّ الحج ّ فرصة كبرى للعفو، وجو ّ مفعم بطلب التوبة والاستغفار والرجوع إلى الصراط المستقيم.

وقد رُو ِي في ثواب الأعمال عن ابن حازم قال: «قلت لأبي عبدا□ (ع) ما يصنع □ بالحاج ۗ قال: مغفور و□ لهم لا أستثني فيه». وعن الصادق (ع): «في سؤال موسى (ع) جبرئيل (ع) ما لمن حج ّ البيت بني ّة صادقة ونفقة طي ّ ِبة؟ قال: فرجع إلى □ عز ّوجل ّ فأوحى إليه: قل له أجعله في الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وح ُسن أُولئك رفيقا ً».

وفي الرواية عن النبيّ (ص) قال رسول ا□ (ص): «للحاجّ والمعتمر إحدى ثلاث خصال: إمّا يُقال له: قد غفر لك ما مضى، وإمّا أن يُقال له: قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل، وإمّا أن يُقال له: قد حُف ِظت َ في أهلك وولدك وهي أخسّهن».

وواضح ما لجو ّ التوبة من تأثير على رسوخها في النفس والتزام النفس بمقتضياتها.

5 ـ تمثّل التاريخ الإسلامي المشرق: حيث يعيش الحاجّ منطلق الدعوة الإسلامية للدول، ويمر بخطواتها وأحداثها الكبرى لتبقى مرتسمة في أعماقه تشده إليها وتدفعه لاستعادة أمجادها وبطولاتها وحمل أمانتها في كلّ عصر.

6 ـ الشعور بعظمة الإسلام: إنّ مَن يعيش عملية الحجّ يدرك حسا ً الدور العالمي العظيم الذي يستطيع الإسلام القيام به فيتأصل في نفسه الشعور بعظمة الإسلام. ويمكننا أن نقول إنّ هذا هو ما يشير إليه وصف الحجّ بأنّه (عَلم الإسلام) حيث يقول أمير المؤمنين (ع): «وجعلَه ُ سبحانه وتعالى للإسلام عيلما ً».

7 \_ الشعور بالوحدة والأُنُوَّة مع الحجَّاج الذين لا تجمعهم لغة واحدة ولا تقاليد ولا حدود ولا مستوى ولا لون، وإنَّما تجمعهم العقيدة. هذا يركَّز الوحدة العقائدية التي يجب أن يحمل لواءها كلَّ مسلم. منطلق واحد لكلَّ الحجَّاج، ومسير واحد، وهدف واحد هو التضحية في سبيل ا∐ تعالى.

8 ـ الفرصة المغتنمة: فالحجّ أكبر فرصة تُتاح كي تلتقي فيها كلّ أجنحة العالم الإسلامي؛ فتتقارب مستوياتها الثقافية، ويتعرّف كلّ جناح على مشاكل الأجنحة الأُخرى، وتعقد المحادثات والمداولات بينهم، فالحجّ أكبر مؤتمر إسلامي عام.

كما أنّ الحجّ فرصة مغتنمة جدًّا ً لتوعية المسلمين على إسلامهم ونتُظمه وقوانينه وفضح شبهات أعدائه ومخططاتهم العامّة.

وهكذا نجد بعد هذا أنَّ الحجَّ:

دورة تدريبية كبرى للبشرية لتدريبها على العمل بأوامر ا□، والتخلق بأخلاقه، والتصديق بكلمته، والسير على منهج أنبيائه، وإحراز الأرباح في متجر عبادته. يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة، ص 45: «وفَرَضَ عليكم حَجَّ َ بيتِه ِ الحَرَامِ، الذي جعلَه ُ قَـِبلَةً للأنامِ، يَرِد ُونَه ُ و ُر ُود َ الأنعامِ، ويأ ْله ُون َ إليه و ُل ُوه َ الحَمَامِ. جعلَه ُ سبحانه ُ علامةً لتواض ُعـِهم لعظمتِه ِ، وإذعَانِهم لعز ّ َتـه ِ.

واختار َ من خَلقِه ِ سُمَّاعا ً أَجابُوا إليه دعوتَه ُ، وصَدَّ َقُوا كلمتَه ُ، ووَقَفُوا مواقَفَ وَانبيائِه ِ، واختار َ من خَلقِه وَ مَتجَر عبادتِه ِ، يُحرِزُونَ الأرباح َ في مَتجَر عبادتِه ِ، أن بيائِه وي عنده موعِد َ مغفرتِه ِ . - جعلَه ُ سبحانه للإسلام ِ عَلمَا ً، وللعائذين حَرَما ً. فَرَضَ حَبَهُ مَن عنده موعِد َ مغفرتِه ِ، وكَتَبَ عليكم و ِ فَاد َ تَه ُ، فقال سبحانه: (وَللِم َ عَلَى النَّاسِ حَجَّه ُ، وأوجَبَ حقَّه ُ، وكَتَبَ عليكم و ِ فَاد َ تَه ُ، فقال سبحانه: (وَللِم َ عَلَى النَّاسِ حَبِيلاً وَ مَن ْ كَفَرَ وَالْمِله َ النَّا َاسِ عَن َ اللَّه عَن َ (اللَّه عَران / 97)».

وتتميز هذه الدورة التدريبية الكبرى بميزات فريدة، فهي:

أو "لاً \_ دورة عالمية تشترك فيها كل "الشعوب.

ثانيا ً \_ تتناول أهم القضايا في حياة الإنسان وسيرته الحضارية فتركزها.

ثالثا ً \_ دورة يقوم بها الناس بإرادتهم واختيارهم بأداء شعائر خ ُطِّ ِط َ لها تخطيطا ً دقيقا ً.

رابعا ً \_ تشترك في إنجاحها الدوافع النفسية والذكريات التاريخية المتمثّلة بالأمكنة المقدّسة، والزمان المقدّس لأنّها تقع في الشهر الحرام.

وما أن يتم الناس القيام بشؤون هذه الدورة حتى يعلن العيد... عيد الانتصار على كلِّ نوازع الظلم، والفوز بكلَّ محقِّقات الكمال.

والأمر الملاحظ بوضوح في الأعياد الإسلامية أنَّها تأتي بعد دورة، إمَّا تربوية كعيدي الفطر والأضحى أو حياتية كبرى كعيد الغدير؛ لتؤكد الفرحة البشرية الصحيحة بالانتصار على الشهوات والشيطان، وبقطع مرحلة مهمَّة من الحياد وبدء مرحلة أُخرى منها تشكَّل تطوَّرا ً لها لتثير مشاعر المسلمين جميعا ً للاتصال الدائم المجموعي با□، وذلك لما فيها من تشريع للصلوات الواجبة والمستحبة وما إلى ذلك من موحيات.

النظرة التفصيلية:

أمَّا إذا القينا على الحجَّ نظرة تفصيلية تتناول واجباته ومحرماته وشرائطه فيمكننا أن نسير معه عموما ً على النحو التالي:

1 \_ الإحرام:

روايات في الإحرام:

روى الكليني بإسناده عن جابر عن أبي جعفر (ع) قال: «أحرم موسى من رملة مصر، قال: ومر بصفائح الروحاء محرما ً يقود ناقة بخطام من ليف عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتجبيه الجبال»[5] وروى الصدوق إنتّه وجب الإحرام لعلة الحرم. وفي العلل وعيون الأخبار عن الرضا (ع) قال: «وإنسّما أُمروا بالإحرام ليخشعوا قبل دخولهم حرم ا□ وأمنه، ولئسّلا يلهوا ويشتغلوا بشيء من أُمور الدنيا وزينتها ولذسّاتها، ويكونوا جادين فيما هم فيه قاصدين نحوه مقبلين عليه بكلسّيتهم، مع ما فيه من التعظيم □ عزسّوجل ولبيته، والتذليل لأنف ُسهم عند قصدهم إلى ا□ عزسّوجل ، ووفادتهم إليه راجين ثوابه راهبين من عقابه، ماضين نحوه، مقبلين إليه بالذل والاستكانة والخضوع».

على ضوء من هذه الروايات الشريفة وغيرها وبملاحظة روح العملية وشرائعها ومستحباتها يمكن القول بأن الإحرام يوحي:

أ \_ بالإخلاص □ تعالى والخشوع له غاية الخشوع، ورفض كلّ المطلقات الوهمية، ونزع كلّ هوى بها تماما ً كما ينزع الإنسان ملابسه، وغسل النفس عن كلّ دنس معنوي، كما يغتسل الإنسان للإحرام والتلبس بالحسنات والصالحات كما يلبس الإنسان ثوبي الإحرام الطاهرين، كلّ هذا يجري باختيار الإنسان وتدريبا ً له على أن يكون كذلك في كلّ حالات حياته.

ب ـ بالرجوع إلى الفطرة ورفض المقاييس الوهمية التي تفصل بين أبناء الإنسانية. ويبدو ذلك بوضوح عندما يلبس الجميع ثوبين بهيأة واحدة فتتمثّل لهم حقيقة التساوي بين الأفراد من الوجهة المادّية ويبدأ التسابق في المجال المعنوي، ويتأكد هذا عندما نلاحظ اشتراط أن لا يكون اللباس مخيطاً، وأن لا تلبس المرأة الزينة.

ج \_ بتذكّر حالات الموقف العظيم يوم القيامة حيث يخرج الناس إلى ا□ (و َبَرَزُوا لَـله ِ الـْو َاح ِد َ الـْقَـَه ّ َار ِ) (إبراهيم/ 48) وهذا ما يوحي له شبه الثوبين بالكفن.

د ـ بالشعور بعظمة النّ ِعمة التي أنعم ا□ بها على الإنسانية بتعريفها بالواقع الذي يمثّله هذا الحرم المقدّس، فتقديس الحرم لما يمثّله من واقع.

لعلّه بكلّ هذا وغيره كان الإحرام سُنّة كبرى يفعلها الأنبياء فتزيده خشوعاً وخضوعاً في محراب ا∏ تعالى.

## 2 \_ التلبية:

### بعض الروايات فيها:

روی الکلینی بإسناده عن الحلبی قال \_ سألته ل ِم َ جعلت التلبیة؟ فقال: «إن ّا □ عز ّوجل ّ أوحی إلی إبراهیم أن ّ: (و َأ َذ ِ ّن ْ ف ِی الن ّ َاس ِ ب ِال ْ ح َج ِ ّ ی َأْ ت ُوك َ ر ِج َالا ً و َ ع َل َی ک ُل ِ ّ ض َا م ِر ٍ ی َا ْ ت ِین َ م ِن ْ ک ُل ِ ّ ف َج ّ ٍ ع َم ِیق ٍ). فنادی فأ ُجیب من کل ّ وجه یلب ّون»[6].

وروى بإسناده عن معاوية بن عمار عن أبي عبدا□ (ع) قال: «التلبية لبيك اللَّه ُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنَّ ِعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك ذا المعارج، لبيك ـ وقال في آخره ـ واعلم أنَّه لابدَّ من التلبيات الأربع في أوَّل الكلام وهي الفريضة، وهي التوحيد وبها لبَّم المرسلون»[7]

وروى الصدوق عن سليمان بن جعفر قال: «سألت أبا الحسن (ع) عن التلبية وعلتها، فقال: إنّ الناس إذا أحرموا ناداهم ا□ تعالى ذ ِكره، فقال: يا عبادي وإمائي لأ ُحرّمنكم على النّار كما أحرمتم لي، فقولهم لبيك اللّه ُمّ لبيك إجابة □ عزّوجلّ على ندائه لهم»[8]. ور ُو ِي عن عاصم بن حميد قال: سمعت أبا عبدا□ يقول: «إن ّ رسول ا□ (ص) لم ّا انتهى إلى البيداء حيث الميل قربت له ناقة فركبها، فلم ّا انبعثت به لب ّى بالأربع... ثم ّ قال: هاهنا يخسف بالأخابث»[9].

ور ُو ِي عن الإمام الباقر (ع) قال: «قال أمير المؤمنين (ع) ما من مهل ّيهل ّبالتلبية إ ّلا أهل ّ من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له الم َلـ َكان: أبشر يا عبد ا□ وما يبشّر ُ ا□ عبدا ً إ ّلا بالجنّة»[10].

ور ُو ِي عنه (ع) قال: قال رسول ا□ (ص): «ما من حاج ّ يضحي ملبيا ً حتى تزول الشمس إ ّلا غابت ذنوبه معها».

وأكثر الروايات تؤكّد أنّ التلبية تعبّر عن استجابة بشرية كبرى لنداء تاريخي عظيم طلب من إبراهيم شيخ الموحدين أن يعلنه في الأرض، وأُ ُعطي وعدا ً بأن يستجيب له المؤمنون.

# إنَّ المسلم إذ يلبي ليشعر:

أ ـ بأنّه أهل لأن يكون في عداد أُولئك الذين أجابوا دعوة إبراهيم (ع) التاريخية، ممّا يبعثه لأن ينظر لارتباطه بالإسلام كمهمّة كبرى أُلقيت تاريخيا ً على عاتق هده الأُمّة، وعليها أن تحمل هذه الأمانة بجدارة.

ب \_ بأنّه يرتبط بحركة التوحيد الخالص الذي ينزّه ا□ تعالى عن كلّ سخافات أهل الكتاب، وكلّ مفتريات المشركين بكلّ ما يعنيه هذا الارتباط من تحكيم التوحيد في كلّ شؤون الحياة.

ج \_ بأنّ عليه أن يستجيب لكلّ نداء إصلاحي حقيقي (الَّدَ ِينَ يَسْتَمَعُونَ الـْقَوْلَ فَيَتَّ َبِعُونَ أَحْسَنَهُ) (الزّمر/ 18) فيلبي قبل كلّ شيء نداء الإسلام للعمل الصالح، ثم يتّ َبع سبيل المؤمنين والقادة.

د ـ بأنّه ـ وهو يلبي ـ ينسجم مع الكون كلّه الذي يلبي معه نداء ا□ (ا ِئْت ِياَ طَوْءًا أَ وْ كَرْهًا قَالَـتَا أَ َتَيْنَا طَائَعِينَ) (فصّلت/ 11).

ومن هنا تركّز الروايات أنّ الجبال وما حواليه تردد تكبيره، وأنّه إذا انفصل عن مسيرة التلبية في قول أو عمل؛ فقد أصبح نشازاً في بناء الكون. ويتأكد هذا المعنى عندما تتردّد أصداء تلبية الحجيج في البيداء.

هـ ـ بأنَّه سيغفر له فيعود طاهرا ً من الذنوب، ولذا فعليه أن يُحاذر من تفويت فرصة الطهارة هذه.

#### 3 ـ محرمات الإحرام:

قال تعالى: (لَيَبَلْهُو َنَّ َكُمُ ا∏ُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيَدْدِ تَنَالُهُ أَيَّدَ ِيكُمْ وَرَ وَرِمَاحُكُمْ) (المائدة/ 94)، وقال تعالى: (فَمَنَ ْ فَرَضَ فَيهِنَّ َ الْحَجَّ َ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الدْحَجَ ِّ) (البقرة/ 197).

بعض الروايات في هذا الصدد:

عن الإمام الصادق (ع) في تفسير الآية الكريمة المتقدمة: «حشر َ عليهم الصيد من كلَّ وجه حتى دنا منهم ليبلون به»[11].

وعن الإمام الصادق (ع) قال: «إن ّ المحرم إذا تزوج وهو محرم فرق بينهما، ثم ّ لا يتعاودان أبدا ً»[12].

وعن الإمام الباقر (ع): «لا ينبغي للمحرم أن يأكل شيئا ً فيه زعفران، ولا يطعم شيئا ً من الطيب»[13]. وعن الصادق (ع) في هذا الصدد «اتق ِ المفاخرة، وعليك بورع يحجزك عن معاصي ا⊡»[14].

والملاحظ: في هذه المحرمات أنسّها تزيد على المحرمات الاعتيادية من جهة وتركسّز التنفر من تلك المحرمات الاعتيادية من جهة أُخرى.

وباستقرائنا لبعض مشاعر المسلم وما يتركه هذا التحريم في نفسه نلاحظ:

1 \_ التربية الأصيلة لعنصر مراقبة النفس: فبعد أن يدخل الإنسان المسلم في جو "الإحرام يحس "بأنه مار تحت حماية ا ومراقبته الأشد، أو أنه قد دخل دورة تدريبية خاص الله عليه فيها أن يتنبه ويكون واعيا ً لئه لل يقوم بعمل من هذه الأعمال المحر مة \_ وبعضها أمر يعتاده ويعيش معه في أوقاته العادية \_ في طلب إليه أن لا يقتل هوام البدن، وأن لا يشم الطيب، وأن لا ينظر في المرآة، وأن لا يتدهن، وأن لا يلمس المرأة، وأن لا يقطع شعرة من بدنه، وهكذا باقي المحرمات الأ ُخرى. وكل هذا يحتاج إلى مراقبة دقيقة تبقى ذكراها مذكرة النفس بلزوم الدقة والوعي في كل "سلوك يسلكه الحاج بعد ذلك.

2 \_ التربية الأصيلة لعنصر الإرادة: وهنا يحرم الجنس والصيد \_ وهو في متناول الأيدي \_ لتمتحن إرادتهم في مقدار استجابتها لأوامر ا□ عز وجل ّ، وسيطرتها على النوازع والغرائز، وليشعروا مع ذلك بعظمة نعم ا□ عز وجل ّ فيشكروه شُكرا ً يتناسب مع ما رسمه لهم.

وتبدو ـ أكثر ما تبدو ـ هذه التربية للإرادة في تحريم لمس المرأة فضلاً عن تحريم الجماع، وكذلك تحريم العقد عليها، وكذلك تبدو واضحة في مسألة كشف الرأس وعدم التظليل بشيء وتحمل ذلك في سبيل ا⊡، إذ له معطيات إرادية كبرى في الإنسان.

3 \_ الزِّ ُهد: بالمتع الدنيوية والشعور بالتحرِّر من ربقتها خصوصا ً إذا كان الإنسان في سبيل تحقيق أوامر ا

4 ـ التدريب العملي على الكلام الحسن والمنطقية في الحديث وتعظيم وجه ا□ تعالى وح ُرماته... والموضوعية. وهو جانب مهم جد ّا ً. فمع أن ّ الكذب شيء حرام في الحالات الاعتيادية، والجدال وغيره أمر مرفوض عموما ً، إ ّلا أنـّه هنا يتأكد رفض هذه الأ ُمور مع جعل أنواع من الجزاء عليها للتأكيد على لزوم نفيها من حياة المسلم. هذا إلى جانب الح ِكم الخاصّة في كل ّ محرم.

### 4 \_ الطواف بالبيت:

قال تعالى: (و َإِ ذ ْ ج َع َلـ ْن َا الـ ْب َي ْت َ م َث َا ب َة ً ل ِلن ّ َاس ِ و َ أَ م ْناً) (البقرة/ 125)، وقال تعالى: (إِ ن ّ َ أَ و ّ َل َ ب َي ْت ٍ و ُض ِع َ ل ِلن ّ َاس ِ ل َل ّ َذ ِي برِب َك ّ َة َ) (آل عمران/ 96).

بعض الروايات في ذلك:

1 \_ الكليني بإسناده إلى معاوية بن عمار عن الصادق (ع): «إذا دخلت المسجد الحرام فادخله حافياً على السكينة والوقار والخشوع، وقال: م َن دخله بخشوع غفر ا ☐ له إن شاء ا ☐. قلت ما الخشوع؟ قال السكينة، لا تدخل بتكبر، فإذا انتهيت إلى باب المسجد فقم وقل: (السلام عليك أي ها النبي ورحمة ا ☐ وبركاته، بسم ا ☐ وبا ☐ ومن ا ☐، وما شاء ا ☐ والسلام على أنبياء ا ☐ ور ُس ُله، والسلام على رسول ا ☐ (ص) والسلام على إبراهيم خليل ا ☐ والحمد ☐ رب العالمين)، فإذا دخلت المسجد فارفع يديك واستقبل البيت وقل: (اللهم التي أسألك في مقامي هذا في أو ل مناسكي أن تقبل توبتي وأن تتجاوز عن خطيئتي، وتضع عني وزري، الحمد ☐ الذي بلغني بيته الحرام، الله ُم ّ إن ي أشهد أن هذا بيتك الحرام الذي جعلته مثا بة للناس وأمنا ً ومباركا ً وهدى للعالمين، الله ُم ّ إن ي عبدك، والبلد بلدك، والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك وأؤم طاعتك، مطيعا ً لأمرك، راضيا ً بقدرك، أسألك مسألة المضطر إليك، الخائف لعقوبتك، الله ُم ّ الله ُم الله والم وم الله وم الله وم الله والله وا

2 \_ يظهر من بعض الروايات إن " جبرئيل هو أو ّل م َن بنى البيت، وأن ّ الملائكة هي أو ّل م َن طاف بالبيت. وهكذا كان الطواف حوله س ُنـّة الأنبياء وأو ّلهم آدم (ع) لكن المعمر الأساسي بعد ذلك كان هو ابراهيم وابنه إسماعيل، وفي رواية أ ُخرى إن ّ الملائكة ب ُنـِي لها بيت في السماء ي ُسم ّى الضراح بأزاء العرش فهي تطوف به، وإن ّ هذا البيت بناه آدم بأزاء ذلك[16].

3 \_ وعن الرضا (ع) \_ في علة الطواف \_ إن ا □ تعالى قال للملائكة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ َ لَـلْمُلاَئِكَةَ إِنِّي جَاعَلُ فَي الأرْضِ خَلَيفَةً قَالُوا أَتَجَعْمَلُ فَيهَا مَنْ يُفْسِدُ فَيهَا وَيَسْفِكُ الدِسَّمَاءَ) (البقرة/ 30)، «فرَدّوا على ا□ فندموا فلاذوا بالعرش واستغفروا، فأحب ا□ أن يتعبدّ العباد بمثل ذلك»[17].

4 \_ وعن أبي جعفر (ع): «إذا دخلت المسجد الحرام وحاذيت الحجر الأسود فقل: (أشهد أن لا إله إ"لا ا□ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، آمنت با□ وكفرت بالطاغوت وباللات والعزى، وبعبادة الشيطان، وبعبادة كل نرداً يرُدعى من دون ا□). ثما ادن ُ من الحجر واستلمه بيمينك، ثم ّقل: (بسم ا□ وبا□ وا□ أكبر، اللهّمُم ّأمانتي أديتها، وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة)»[18].

5\_ وعلَّل الإمام الصادق (عليه السلام) وضع الحجر في الركن الذي هو فيه قائلاً: «لعلة الميثاق»... وأمَّا القبلة والاستلام فلعلة العهد تجديداً لذلك العهد والميثاق[19].

وبمراجعة الروايات الواردة في الطواف، وكذلك المشاعر التي يشعر بها الحاج ّ الواعي نجد أن ّ الطواف واستسلام الحجر يمث ّ ِلان أرقى حالات:

أ \_ التسامي الإنساني وذلك لأن من الواضح أن الملائكة في التصو ر الإسلامي يمث للون الموجودات الطاهرة تماما ً، العابدة تماما ً. والإنسان الطائف يشعر \_ وهو يطوف \_ بأنه يقلد الملائكة الطائفين حول (الضراح) وهو البيت الذي يقوم في السماء بإزاء هذا البيت أو حول (العرش) وهو مطاف الكون كله. فما أروع إكرام ا للإنسان، وما أروع شعور الإنسان بهذه الكرامة الإلهية. خصوصا ً وإن بعض الروايات تؤكد أن مسألة طواف الملائكة جاء بعد سؤالها الذي ذكره القرآن (أَتَجْعَلُ فيها مَن ْ يُغْسِدُ فيهاً مَن ْ يُغْسِدُ فيها.

ب \_ التعلُّق بعالم الغيب: تبعاً لذلك التسامي وتأكيداً لنزع الإنسان من التعلُّق بالمادّة لا غير إلى التعلُّق بعالم الغيب، ومحلاً للاتصال بينه وبين عالم الغيب، ومحلاً للاتصال بينه وبين عالم الشهادة، وإنّ من الواضح أنّ الإيمان بالغيب يشكّل أحد أهم مقومات الشخصية المسلمة (يُؤْهَ مِنُونَ بِالدُّعَ يَدْبِ وَيُقَيِمُونَ الصَّلَاةَ) (البقرة/ 3).

ج ـ الغفران المؤكّد: وهذه الحالة الفريدة التي يوجدها الطواف أمر لا يمكن أن يـُوصف، بل هو حالة نفسية يدركها مـَن يعيشها... موقف خاشع كلّ الخشوع تظ□ الرحمة الإلهيّة والعناية الخاصّة، ثمّ ميثاق يمنحه الإنسان للحجر الأسود تلك القطعة التي نزلت من الجنّة فتجسّدت أمام الإنسان تذكره بفطرته وبالميثاق الذي أعطاه بها □ بالإيمان والتسليم... فبالاستلام والتقبيل يتأكد العهد ويتجدّد كما يُعبّ َر الإمام (ع). إنّ كلّ عناصر الموقف تشترك في تركيز التوبة وتعميقها خصوصا ً إذا تصوّر الحاجّ أنّه يسلك صراط الملائكة في توبتها وإنابتها إلى ا□.

د \_ الاتباع لس ُنسّة الأنبياء: وإذا قيل س ُنسّة الأنبياء فلا يعني ذلك إسّلا الأسلوب الوحيد الذي وضعه الله التكامل الإنسان، وهذا الاتسّباع الحسي والشعوري لابد وأن يركسّز الاتباع الحياتي بمجموع ما في الحياة من نشاط، ويتم تركيز هذا الشعور عند الطائف بأ مور: منها شعوره وهو يطوف حول الكعبة بأنسّه يطأ موطئ الأنبياء جميعا والأئمسّة والصالحين عبر التاريخ... يضع قدما ً حيث وضعوا، ويتسّجه حيث اتجهوا، ومنها الأدعية التي يستحب له قراءتها آنذاك وقبله حيث استحب له التسليم على النبيس (ص) قبل كل شيء، ثم التسليم على جميع الأنبياء مع التركيز على سلام خاص بإبراهيم (ع) رمز الحنيفية الصافية، التي لم تلوثها مبتدعات اليهود والنصاري. ومنها هذا المقام الذي يصلي عنده ركعتي الطواف، وحجر إسماعيل الذي يدخله بعد، فيصلسّي ويدعو وغير ذلك.

هـ ـ تركيز التوحيد وتعظيمه باعتبار البيت الواحد رمزاً [ الواحد القهار، وباعتبار أنّ الأرض كلّها مكلّفة بالطواف حول هذا المركز الواحد الذي خصّه ا[ بذلك ليعمّق الإيمان الخالص به تعالى، ويبدو هذا واضحاءً من خلال ما يدعو به الطائف عند الطواف من أدعية.

و ـ العمل الجاد في سبيل نشر أضواء الإسلام على العالم: وذلك يمكن أن يستفاد من الروايات التي تجعل الكعبة منار الإسلام وعلمه. فالطائف حول الكعبة جندي يطوف حول العلم ويتمسك به ويعمل على رفعته وتقد مه، كما يظهر من الروايات التي تشبه الطائفين بالملائكة المطيفين بعرش ا□، ومن ملاحظة وجه الشبه وهو كون العرش محور حركة الكون، والكعبة محور حركة الأرض ينطلق المسلم ليحق ّق هذا المعنى في الأرض، فينزل أمله في جعل الكعبة محور حركة الأرض إلى واقع التطبيق.

ويرى محمّد أسد (ليو بولد فايس) المستشرق النمساوي المعروف في كتابه (في الطريق إلى مكّة) أنّ الكعبة هي رمز الوحدة الإلهيّة، وإنّ حركة الحاجّ هي التعبير الرمزي عن نشاط الإنسان. وهنا تنسجم المشاعر مع الألفاظ حيث يدعو الطائف (اللّه ُمّ افتح لي أبواب رحمتك، واستعملني بطاعتك).

5 \_ السعي بين الصفا والمروة: قال تعالى: (إِنِّ َ الصِّ َفَا و َالْهُمَرِ ْو َةَ مِنْ شَعَائِرِ ا□ِ فَمَن ْ حَجَّ َ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنْاح َ عَلَيْه ِ أَنَنْ يَطَّ َوَّ َفَ بِهِمَا وَمَن ْ تَطَوَّ عَ خَيْرًا فَإِنَّ ا□ َ شَاكِر ْ عَلَيِم ْ) (البقرة/ 158). وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدا□ (ع) يقول: «ما من بقعة أحب الله ا□ من السعي لأنه يذل فيها كل جبار».

وهناك رواية في (العلل) تربط السعي بسعي أُمِّ إسماعيل بين الصفا والمروة لجلب الماء لإسماعيل. وأُخرى تربطه بسعي إبراهيم لطرد إبليس. ومن المناسب التذكير بأنَّ الجبلين كانا موضعين لبعض الأصنام وقد تأثم البعض من السعي لذلك فنزلت (فَلا جُننَاحَ).

وروى بعض الأصحاب أنّه قال: «كنت في ظهر أبي الحسن موسى (ع) على الصفا والمروة وهو لا يزيد على حرفين: اللّهُ مّ إنّي أسألك حُسن الظنّ بك على كلّ حال، وصِدق النيّة في التوكل عليك».

وإذا لاحظنا هذا تأكد في أنف ُسنا أنَّ السعي بين الصفا والمروة يعني فيما يعني:

أ ـ ذلة الجبارين، ونزع صفة التجبر والتكبر عن الإنسان لأنَّهما رداء ا□ ولا يمكن أن يلبسهما غيره، وبهذا تفيض كلَّ معاني الاستسلام □ الجبار استسلاما ً كاملاً. فيصحو الإنسان على واقعه، ويتجاوز كلَّ الخيالات الباطلة التي تدور في ذهنه نتيجة للترسبات الجاهلية الخداعة. وما أروع أن نجد المتحكمين يُطلب منهم أن يسعوا، بل ويرملوا في بعض المواضع مكشوفي الرأس لابسين بردي الإحرام فقط ليشعروا حسا ً بعدم الفرق بينهم وبين غيرهم وبأنَّهم عبيد خاضعون له تعالى. ب ـ السعي ضمن حدود ا□: وهذا المعنى يتوجه إليه الحاج ّ بوضوح، فيدرك أن ّ الفعالية والنشاط، ورفض الكسل والجمود والخمول، والتوكل على ا□ أمر أصيل في الإسلام؛ ولكن على أن يكون ذلك السعي ضمن الحدود التي وضعها ا□ على ضوء من المصالح البشرية التي هو أعلم بها.

ج \_ الارتباط اكثر فأكثر بتلك العائلة المقدّسة، عائلة إبراهيم (ع) التي شكّلت حلقة الوصل الحسي بينه وبين النبيّ الأكرم (ص) والذي يؤكّد التلاحم الهدفي بينهما.

فيستجيب ا□ هذا الدعاء ويبعث النبيّ الأكرم (ص) ويقول تعالى في القرآن الكريم: (هُوَ الَّذَيِ بَعَثَ فَي الأَمَّيِيِّينَ رَسُولاً مَنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتَهِ وَيُزَكَّيهِمْ وَيُعَلَيَّمُهُمُ الْـُكَيِّابَ وَالـْحَكِمْمَةَ) (الجمعة/ 2).

والملاحظ في كلّ هذه الآيات أنّها تطوف حول محور أصيل، وهو التسليم □ تعالى. ولذا تحمّلت هذه العائلة كلّ المشاق تسليما ً □، فكلّ مسلم عاش حياة السلم كان من ضمن هذه العائلة المقدّسة الموحّدة... عائلة خليل ا□.

6 ـ الوقوف بعرفة والمزدلفة: قال تعالى: (لَي ْسَ عَلَيَ ْكُمُ ْ جُنْاَحُ ْ أَن ْ تَب ْتَغُوا فَصْ ْلاَّ مِن ْ رَبِيّكُم ْ فَإِذَا أَفَصْتُم ْ مِن ْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا ا□َ عِنْدَ الْمُسَّعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم ْ وَإِن ْ كُنْتُم ْ مِن ْ قَبْلَه ِ لَمَنَ الضَّالَ ِّينَ) (البقرة/ 198).

1 \_ ورد أنّه يوم دعاء ومسألة[20].

2 \_ وجاء عنهم (ع) أنَّه «وتعوذ با□ من الشيطان الرجيم فان الشيطان لن يذهلك في موطن قط أحب إليه من أن يذهلك في ذلك الموطن، واياك ان تشتغل بالنظر إلى الناس، وأقبل قَـِبَلَ َ نفسك»[21].

3 \_ وتواترت الأخبار في أدعية عرفة ومنها رواية دعاء الحسين (ع) يوم عرفة.

4 \_ وجاء في خبر عن النبيّ (ص) أنّ علة إيجاب الوقوف بعرفات بعد الظهر، والانصراف بعد المغرب، هي كون الوقت الأوّل يناسب وقت عصيان آدم والآخر وقت التوبة عليه[22]. 5 \_ وعن معاوية بن عمار عن أبي عبدا□ (ع) قال: «أصبح على طهر بعد ما تصلي الفجر فقف إن شئت قريبا ً من الجبل، وإن شئت حيث شئت، فإذا وقفت فاحمد ا□ عز وجل ّ، وأثن عليه، واذكر من آلائه وبلائه ما قدرت عليه، وصل ّ على النبي ّ (ص) ثم ّ ليكن من قولك: (الله ُ م ّ رب ّ المشعر الحرام فك رقبتي من النار، وأوسع علي ّ َ من رزقك الحلال)»[23].

إلى ما هناك من الأخبار الكثيرة في هذا الصدد. وإذا أردنا أن نتحدّّث عن بعض المشاعر التي يشعر بها الحاجّ في هذا الموقف الجليل استطعنا أن نذكر منها ما يلي:

أ \_ فرصة الد"ُعاء: فقد رأينا بعض الأخبار التي تؤكّد على الد"ُعاء، كما أن " الروايات الواردة فيما يقرأ آنذاك كثيرة، وكلسّها جاءت تشبع رغبة الإنسان في الد"ُعاء والتضرع في هذا الموقف الرائع. ولن نحاول هنا التعرسّ إلى دور الد"ُعاء في حياة الإنسان، وإنسّما نشير إليه باعتباره عاملاً مهما ً في نفسه لتركيز عبودية الإنسان لربسّه خصوصاً، بل ولتركيز كل ّ المفاهيم والأخلاق الإسلامية إذا كانت له مضامين عالية كالذي ورد عن الأئمسة (ع) من ثروة دعائية لا تُقد ّ ر بثمن فإنسّها كانت أدعية ركسّزت العقيدة الصحيحة، والمفاهيم الحقسة والأخلاق الإسلامية في المسلم، ولنختر بهذه المناسبة أحد أروع الأدعية وهو دعاء الحسين (ع) الوارد في يوم عرفة ونقرأه لنجد الدليل الواضح على ذلك. وهذه فقرات

(اللهّه ُمّ إنّي أرغب إليك، وأشهد بالربوبية لك، مقرا ً بأنّك ربّي وإليك مردّي، ابتدأتني بني لحم بنيعمتك قبل أن أكون شيئا ً مذكورا ً.. فابتدعت خلقي من مني يمنى، وأسكنتني في ظ ُلمات ثلاث بين لحم ودم وجلد، لم تشهدني خلقي، ولم تجعل لي شيئا ً من أمري، ثمّ أخرجتني للذي سبق لي من الهدى... حتى إذا اكتملت فطرتي واعتدلت مرتي (قو ّتي) أوجبت علي ّ حج ّتك بأن ألهمتني معرفتك...). (اللهّه ُمّ اجعلني أخشاك كأنّي أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وأخر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحب ّ تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، اللهّه ُمّ اجعل غناي في نفسي، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني، ومتعني بجوارحي، واجعل سمعي وبصري الوار ِ ثـَين ِ منى، وانصرني على من ظلمني. (

ب ـ تذكّر القيامة: وتجسمها بمثل هذا الموقف الرهيب حيث تمتلئ الصحراء بالحجيج في ثيابهم البيض التي تشبه الأكفان، تصهرهم أشعة الشمس، والوجوه كلّها تعنو للحيّ القيوم... إنّ الدّّ ُعاء ليكتسب له معني ً خاصا ً في مثل هذا الجو المفعم بالخشوع.

ج ـ التوبة: فقد حدّ ثتنا بعض الروايات أن هذا الوقت يشك ّل بب ُعديه وقت عصيان آدم ووقت توبته، وهي التجربة البشرية الأ ُولى التي مر ّ بها آدم فندم عليها وتاب ا□ عليه، وهذا الجو ّ الذي أوحت به الروايات وهو القيامة وجو الد ّ ُعاء كل ّها تشترك لترك ّز مفعول التوبة في النفس، لتكون توبة نصوحا ً.

د ـ الحياة الخالصة []: وهذا المعنى يحسّ به المسلم تماما ً حين يجد نفسه وقد ترك كلّ مشاغله ليعيش [ مطهرا ً نفسه من أدرانها ومعاهدا ً ا[ على أن يحوّل حياته بعد الموقف كلّها حياة مرضية له تعالى.

هذا إلى ما هنالك من المشاعر، ومنها شعور الإنسان بعظمة الإسلام الذي يستطيع أن يجمع القلوب والأجسام على صعيد واحد وتذوى حينذاك كلّ التفرقة الوهمية، وشعوره بأنّ هؤلاء جميعاً أينما وجدوا وكانوا هم أخوة له يقفون موقفه، ويدعون بدعائه، ويستهدفون هدفه، وغير ذلك.

7 \_ رمي الجمار: روى الصدوق عن النبيّ (ص) والأئمّة (ع) إنّما أُمر برمي الجمار لأنّ إبليس اللعين كان يتراءى لإبراهيم في موضع الجمار فيرجمه إبراهيم (ع) فجرت بذلك السنة[24].

قال: وقال (ع): الحاج ّ إذا رمي خرج من ذنوبه[25]. وروى الكليني عن أبي عبدا□ (ع) قال: قلت: ما

أقول إذا رميت؟ قال: «كبّر مع كلّ حصاة».

وأهم ما يبدو للإنسان في هذا المنسك الرائع هو هذا الرمي المجموعي لرموز الشيطان واحدا ً بعد الآخر تعبيرا ً حسيا ً عن لزوم نفي الشر ّ من الأرض بعد اتسّباع طريق الخير، والطواف حول رمز الخير الكعبة. والجميل في الأمر أن ّ المسلم يشعر إذ يطوف حول مركز واحد، ويرمي رموزا ً للشر ّثلاثة، بأن ّ طريق ا □ واحد في حين أن ّ طُرق الشيطان متعد ّدة.

وباستحباب التكبير له عند كلّ رمية يشترك اللفظ في الموقف ليؤكّد في شعور الإنسان عهده 🛘 تعالى بأن يرمي الشرّ والشيطان ولا يتبعهما، ويبقى وفيا ً لعقيدته بأنّ ا 🗎 خالق كلّ شيء وفوق كلّ قوّة.

8 ـ الذبح: وهو جانب مهم من مناسك الحج"، ويؤكّد على الوجه الاجتماعي للعبادات. إذ أن الذبح في كل عام يوف ّر للفقراء مقدارا ً كبيرا ً من الطعام ـ وإن لم يعمل المسلمون على الاستفادة منه بشكل أحسن ـ على أن الحاج اذ يقوم بهذا المنسك يتأكد في نفسه عنصر مواساة الفقراء وإطعامهم، وتخليص المجتمع من مآسي الجوع. وهنا يتجلّى أيضا ً معنى التضحية العملية التي قام بها إبراهيم (ع) بتقديم و ُلده العظيم إسماعيل. وتتوارد خواطر التسليم المطلق لأمر ا□، وتترد ّد صرخة إسماعيل المسلم (ي َل أ ب َت َ افْع َلْ م َا ت ُؤْم َر ُ) (الصافات/ 102) مماً ي ُوجد شعورا ً لدى المسلمين بقيمة الأوامر الإلهية، ولزوم التسليم لها حتى لو لم تعلم الحكمة فيها، لأناها قد صدرت من لدن حكيم خبير.

9 \_ الحلق: في الرواية عن أبي عبدا□ (ع) أنّه سُئرَل: كيف صار الحلق على الصرورة واجبا ً دون من قد حج ّ؟

قال: «ليصير بذلك موسوما ً بسمة الآمنين، ألا تسمع قول ا□ عز ّوجل ّ: (لـَتـَد ْخ ُلـُن ّ َ الـ ْم َس ْج ِد َ الـ ْدَرَام َ إِن ْ شَاء َ ا□ ُ آم َن َ م ُح َلـ ّق ِين َ ر ُء ُوس َكُم ْ و َم ُق َص ِ سَرِين َ لا ت َخ َاف ُون َ) (الفتح/ 27)»[26]، وكأن ّ الحلق أصبح علامة للمسلمين تميزهم عن غيرهم. ومن هنا يحلق الحجاج لينضموا إلى الرعيل المؤمن المسلم عبر التاريخ.

وهكذا:

فقد رأينا كيف أنّ الحجّ بنظرة إجمالية، وبنظرة تفصيلية يشكّل أروع الأساليب التربوية التي قام بها الإسلام لتهذيب النفوس وتأكيد سيرها على خطّ التكامل.

- [1]- سفينة البحار، عبّاس القمي، ج1، ص211.
  - [2]- المصدر السابق نفسه.
  - [3]- المصدر السابق نفسه.
  - [4]- المصدر السابق نفسه، ص210.

- [5]- وسائل الشيعة، الحرِّ العاملي، ج9، ص3.
  - [6]- المصدر السابق نفسه، ص47.
    - [7]- المصدر نفسه، ص48.
    - [8]- المصدر السابق نفسه.
      - [9]- المصدر نفسه، ص49.
      - [10]- المصدر نفسه، ص50.
  - [11]- المصدر السابق نفسه، ص76.
    - [12]- المصدر نفسه، ص91.
  - [13]- المصدر السابق نفسه، ص93.
    - [14]- المصدر نفسه، ص321.
  - [15]- المصدر السابق نفسه، ص325.
    - [16]- المصدر نفسه، ص386.
    - [17]- المصدر نفسه، ص388.
    - [18]- المصدر نفسه، ص401.
    - [19]- المصدر نفسه، ص403.

[20]- وسائل الشيعة، الحرِّ العاملي، ج 15، ص 10.

[21]- المصدر نفسه، ج 10، ص16-15.

[22]- المصدر نفسه، ص 24.

[23]- المصدر نفسه، ص 45.

[24]- المصدر نفسه، ص 69.

[25]- المصدر نفسه، ج10، ص68.

[26]- المصدر نفسه، ج10، ص188.